حسني أبو يوسف اللويثي

أزمة الثورة الفرنسية

حسني أبو يوسف اللويثي

53

حسين يوسف اللويثي



أزمــة الثــورة الفرنسيــة

لم تكن الثورة الفرنسية في العام 1789 م .. حدثاً فرنسياً خالصاً .. ولم يكن انفجار ذلك الحدث بمعزل عن التأثيرات والارهاصات الثورية التى بدأت ترتسم في دنيا أوربا آنذاك .. والتى تمثلت في اضطرابات شعبية وفلاحية عكست حالة التذمر الاجتماعى التى تعيشها شعوب أوربا .. في بريطانيا في العــام 1780 م .. وفي روسيا وبوهيميا والمجر في العقدين السابع والتاسع من القرن الثامن عشر .. وما الثورة الفرنسية إلا استمراراً لتلك الأحداث فكانت أعظمها .

انه لا يقلل من عظمة ذلك الحدث فرنسياً وعالمياً .. كون الثورة الفرنسية التى حطمت أركان سجل « الباستيل » الرهيب استجابة طبيعية لجملة المشاكل التى كان يعيشها الشعب الفرنسى والكامنة في صلب الملكية الفرنسية والمجتمع الفرنسى ذاته .. حيث كان الشعب الفرنسى يعيش مجتمعاً

ملكياً اقطاعياً يسوده التمايز الطبقى .. وتمزقه الصراعات السياسية .. ويتيه فيه الانسان في آلة الملكية المستبدة ..

فلقد شكلت الثورة الفرنسية منعطفاً تاريخياً خطيراً تجاوز التاريخ الفرنسى ليسكن تاريخ البشرية قاطبة .. مسجلا بذلك بداية العد التنازلى للأنظمة الاقطاعية الملكية .. مزلزلاً الأرض من تحت أركان الملوك والآلهة والمستبدين مما جعل فرائض الملوك ترتعد لهول الحدث .. فالثورة الفرنسية قلبت المؤسسات الملكية رأساً على عقب .. محدثة فيها تغييراً جديداً وخطيراً .. وادخلت إلى عمق التاريخ السياسى معاني الحرية والمساواة واكتظ القاموس السياسى بمفرداتها الثورية في بناء المجتمع الجمهورى الجديد على أنقاض المجتمعات الملكية الاقطاعية السائدة آنذاك في أوربا .. الأمر الذى أدى إلى اشهار السيوف الملكية في وجهها ونعتها بالبدعة والجريمة التى لا تغتفر .. لقد كانت الثورة الفرنسية تحدياً للمؤسسات التقليدية السائدة في أوربا المتمثلة في المؤسسات الملكية ومؤسسات الكنيسة وكان ذلك كفيلاً بتحقيق تحالف السلطتين الزمنية والدينية ضدها لقتلها في

المهد .. لكن المد الثورى الجمهورى الجديد تجاوز كل ذلك مخترقاً تحالف الممالك الاوربية ومسجلاً انتصارات لبداية عصر جديد هو عصر الجمهوريات .. في باتافيا في هولندا من العام 1795 م .. وجمهورية جبال الالب الغربية .. والجمهورية الهلفيية في سويسرا من العام 1798 م .. في الوقت الذى تضاعفت فيه أعداد مؤيدى الثورة الفرنسية وعشاق مبادئها في « الحرية .. الاخاء .. المساواة » في انجلترا واسكوتلندا مطالبين باحداث تغييرات جذرية في مؤسسات الملكية البريطانية العتيقة .. وتوالت الأحداث حافرة وراءها تاريخاً رهيباً من سلسلة من حروب خاضها قادة فرنسا ضد التحالفات الملكية الاقطاعية القذرة في وجه الزحف الثورى الجديد ..

ان تلك الانتصارات التاريخة العظيمة التى حققتها الثورة الفرنسية قد كتب عليها أن تقف عند حد معين .. احتوتها القوى البرجوازية واستثمرتها لصالحها .. مجهضة كفاح الجماهير الفرنسية ومستبدلة النظام الفردى الملكى بنظام آخر قوامه النخبة والصفوة .. الأمر الذى حال دون

أن تقطف الجماهير ثمرة انتصارها النهائي .. وأفرغت شعارات الثورة العظيمة في الحرية والإخاء والمساواة من أى محتوٍ وكيفتها النخبة وفق مفاهيمها ومصالحها في شكل اعلانات ووثائق جوفاءِ بقيت حبراً على ورق .. ويصدق في هذا الصدد ماذهب إليه «المسعورين» في أفكارهم السياسية المناوئة للقوى البرجوازية والتى تنتقد بشدة الشعارات المطروحة الحالية من أى محتوٍ .. أفكارهم التى كانت بمثابة ردة فعل قوية تفضح القوى البرجوازية التى احتوت الثورة الفرنسية وجعلت من شعاراتها العظيمة ثوباً تخيطه وفق مقاسها ومصالحها .. فالحرية ليست إلا شبحاً عندما تستطيع طبقة من الناس ان تجوّع الأخرى بدون قصاص .. والمساواة ليست إلا شبحاً تافهاً عندما يستطيع الغنى عن طريق الامتيازات أن يتحكم بحياة وموت آخرين .. وان القوانين جائرة تجاه الفقير لأنها صنعت بيد الأغنياء ومن أجلهم .. كيف حدث ذلك ؟

ولماذا وقعت الثورة الفرنسية فريسة للقوى البرجوازية فركبت موجتها وانحرفت بها وحرمت الجماهير من ثمرة انتصارها .. لماذا حدث كل ذلك ؟

إذا ما حاولنا تقييم ما حدث في فرنسا في العام 1789 م.. بموضوعية وعلمية فإننا نجد أنفسنا أمام حقيقة مفادها :

ان الثورة الفرنسية هي في حقيقة الأمر كانت تفتقر إلى نظرية ثورية تهتدى بها في بناء نمط العلاقات الجديدة والعادلة وان تجسد وفقاً لاطروحاتها الشعارات الجميلة التى كانت ترفعها . لقد كانت الظروف السياسية والاقتصادية وحتى الاجتماعية بشكل عام في غير صالح المواطن الفرنسي الذى أرهقته الحالة المعيشية السيئة التى كان يعيشها في ظل نظام ملكى اقطاعياً يسودة التمايز .. ولقد كانت المطالب الجماهيرية الفرنسية حتى لحظة انفجار حدث الثورة في العام 1789 م تتجه نحو الاصلاحية والتلفيقية وتطالب باجراءات ملكية تحد من وطأة الضرائب التى أثقلت كاهل المواطن الفرنسي .. حتى انه قيل :

« لو لم يواجه الحكم الفرنسي أزمة مالية في العام 1786 م ولو بادر إلى تبنى بعض الخيارات والمواقف ولو بتقديم

التنازلات لما برزت الحاجة الملحّة إلى الثورة » . وهذا يصدق من زاوية أخرى إذ ان الجماهير الثائرة وأيضاً الأشخاص الذين شاركوا مشاركة فعالة في احداث الفعل الثورى .. كانوا لايدركون ومنذ البداية ماذا يريدون على وجه التحديد .. أى ان التصور الجديد لنظام الحكم لم يحدد ولم يتبلور .. الأمر الذى جعل احداث 1789 م تتسم بالمباغتة والمفاجأة والانتقال الطفراوى المفتقر إلى أى اعداد أو تهيئة .. ولذا فإنه من الصعوبة بمكان وسط الهيجان الشعبي الذى رافق أحداث الفعل الثورى التكهن بما ستؤول إليه الأمور .. ان مشاكل عدة قد واجهتها المؤسسات في وضع أسس لشكل نظام الحكم الجديد في فرنسا وهذا مرجعه غياب التصور المستقبلى الذى تقدمه النظرية الثورية لبناء المجتمع الجديد .. فبدأت الجمعية الوطنية عاجزة تماماً في محاولاتها لوضع الدستور ثم توقفت نهائياً لفترة ما بعد تحطيم « سجن الباستيل » وحتى تلك الاجراءات التى فرضت على الملك من النواب الذين جمعهم لمساعدته على موازنة الميزانية .. جلها اجراءات لاتخرج على النطاق الاصلاحى

والتلفيقى .. لقد تعود الشعب الفرنسى على لغة المطالبة الاصلاحية ونقد السياسات الملكية ويبدو ان هذه السمة قد لازمته حتى بعد الانفجار الثورى الرهيب في العام 1789 م فإن شيئاً لم يتبدل رغم كل الحلول التلفيقية الاصلاحية وفي الوقت الذى رفعت فيه شعارات سيادة الشعب واعلن عن ميثاق حقوق الانسان تحول الأمر إلى نوع من الغوغائية والعبث كنتيجة لغياب النظرية الثورية التى تضع تلك الشعارات الرائعة موضع التطبيق العلمى والعملى على أرض الواقع .. لدرجة عادت فيها الملكية من جديد إلى فرنسا واحتلت البرجوازية العرش الفرنسى فبدأت الحروب مصاحبة للمحاولات المتكررة لاعلان الجمهورية حتى إذا ماتم ذلك كانت الأقلية البرجوازية قد احتوت الثورة وسيطرت على زمام الأمور ..

والمستقرىء لتاريخ الثورة الفرنسية يدرك ان افتقادها إلى نظرية ثورية علمية يؤسس وفقاً لها المجتمع الثورى الجديد يعنى بالضرورة ان الثورة الفرنسية كانت تقود نفسها إلى النهاية .. وحتى بعد عودة الجمهورية من جديد

كان شيئاً ما مفقوداً .. مما حرم الجماهير من ثمرة انتصارها .. فالسلطة قد آلت إلى النخبة .. أما الثورة فقد أصبحت مجرد ذكرى ..

ان افتقاد أى ثورة لبديل علمى وعملى يقام على أساسه المجتمع الجديد وعلى أنقاض القديم البالى والظالم .. يعنى بالضرورة أن تبقى الثورة تراوح في مكان ما لا تتخطاه وان تكرر ذات الماضى وان تغلب على كل خطواتها سمة العبثية والعشوائية والانتقال الفجائي غير المدروس .. وهذا ما حدث بالفعل للثورة الفرنسية في صورة فعل ثورى اتسم بالتململ والتمرد على النظام الملكى دون أن يتعدى دوره التشريح والنقد للمؤسسات الملكية لا يطولها بالتغيير العميق والجذرى .. لقد دارت الجماهير الفرنسية مع الثورة في حلقة مفرغة .. هاجت وماجت وعادت إلى اصفاد النخبة عوضاً عن اصفاد الملك ..

لقد كان لغياب النظرية الثورية في مثال الثورة الفرنسية أثراً كبيراً انسحب على مجمل الأحداث التى صاحبت

حدوث الفعل الثورى صبغته بالصبغة الغوغائية والديماغوجيه وهو أمر ساعد إلى حد كبير القوى البرجوازية في عملية احتواء الثورة وتدجينها .. ان ذلك قد أدى إلى اختلاط الأمور وتشابكها وتعقدها دونما تمييز بين أعداء الثورة وجماهيرها وقواها ..

ان الهيجان الشعبي وأعمال العنف التى صاحبت الفعل الثورى بقدر ماهى وسيلة وحيدة للرد على إرهاب القوى المعادية للثورة .. إلا أن تطورات الأمور أكدت ان القوى البرجوازية استغلت تلك الحالة لصالحها ومن أجل مصالحها لتنزلق بالعنف الثورى الجماهيرى إلى دائرة الارهاب .. فماتت الثورة الفرنسية بفعله وذلك غاية القوىالبرجوازية للوقوف بالثورة عند هذا الحد الذى يخدم مصالحها ويكرس سلطتها ..

ان العنف الثورى مرحلة تمليها الظروف عندما يكون تعقيدها بالغ الحساسية بحيث يتعذر حل المشكلات بين العهدين النقيضيين إلى درجة تدفع القوى الرجعية إلى محاولة

قتل المولود الجديد .. ان الارهاب الذى تمارسه القوى الرجعية ضد الجماهير لن يترك مجالاً إلا لحالة واحدة هى العنف الثورى الجماهيرى في مواجهة الارهاب الرجعى .. ومن غير المعقول اطلاقاً ان تتم مواجهة الارهاب بالوعظ والارشاد أملاً في احداث التغيير المطلوب .. ان محو آثار النظام القديم البالى والظالم لايمكن أن يكون ثمرة عملية سحرية أو نتاجاً لتفاهماً ودياً .. إذ ان ذلك يستوجب بالضرورة قتالاً حاسماً مميتاً يخوضه الطرفان .. ان جدلية الصراع بين نقيضين تفرض حالة العنف لتحطيم القواعد الظالمة التى تسعى القوى الرجعية إلى المحافظة عليها .. ان الثورة تجد شرعية عنفها في المجتمع الظالم الذى قامت ضده .. انها قامت ضد إرهاب العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الظالمة .. لكن ما جعل كل الثورات تقع في حلقة مفرغة هو انها تواجه بالعنف نظاماً يستند إلى الارهاب ثم سرعان ما تقع فريسة اداتها عندما يتجاوز عنفها دائرة العنف الثورى من أجل التغيير ليقع في محظور الارهاب .. وذلك مرجعه بالضرورة غياب النظرية الثورية

التى تقدم البديل العلمى والعملى لبناء المجتمع الجديد المنشود.. والدليل الذى تسترشد به الجماهير لاستنباط القوانين الثورية وتمييز أعدائها من حلفائها .. ان غياب النظرية الثورية وسيادة حالة من الغوغائية والديماغوجية في احداث الثورة الفرنسية .. قد ساعدتا إلى حد كبير القوى البرجوازية في احتواء الثورة الفرنسية وفرض حالة من الارهاب طالت مفكرى الثورة الفرنسية وقيادتها وجماهيرها .. إلى درجة أصبح فيها الارهاب وسيلة قمع رسمية ومعترف بها علناً .. فحاصرت القوى البرجوازية الثورة وباتت تهمة معاداة الدولة تلصق بكل من يعارضها الحكم أو ينافسها فيه .. وأصبح هاجس المثول أمام المقصلة وارداً في أذهان كل فرد من الجماهير الفرنسية ..

فالمقصلة التى نصبتها البرجوازية صارت شيئاً مرعباً قطعت من الرقاب الكثير وأكلت من البشر إلى ان فل حديدها .. كان طعامها في كل مرة رقاب الفلاحين والمنتجين .. ومفكرى الثورة الفرنسية وقياديها أنفسهم الذين حرضوا على الثورة وأشعلوا الوعى الجماهيرى

وألهبوا مشاعر الجماهير بالشعارات الثورية المعادية للاستبداد والتحكم .. فأعتلاء دانتوان وروبسبيير وآخرون المقصلة وكانوا ضحية الارهاب البرجوازى ..

ان القوى البرجوازية قد نفّرت الجماهير ذاتها من الثورة حينما اقترنت الثورة وأحداثها بحالة الارهاب التى فرضتها تلك القوى .. فأصبح الأمر شيئاً تقشعر منه الأبدان .

ان غياب الحل الثورى المتمثل في النظرية الثورية .. وغياب الأسلوب الثورى من أجل التغيير ووضع النظرية الثورية موضع التطبيق العملى .. أمران قادا الثورة الفرنسية إلى النهاية .

والخلاصة :

ان الثورة الفرنسية تعتبر تغييراً خطيراً في صلب المجتمعات الملكية الاقطاعية الأوربية وهى بداية العد التنازلى للأنظمة الملكية وحدثاً عظيماً هز أركان الممالك وارتعدت

له فرائض الملوك والأباطرة .. مشكّلة بذلك حداً فاصلا بين عصور الملكيات وعصر الجمهوريات ..

غير ان روح الموضوعية والحقيقة تفرض علينا أن نضع هذه الثورة موضع التقييم .

* فالثورة الفرنسية كانت تفتقر إلى النظرية الثورية التى تهتدى بها من أجل استشراق المستقبل للجماهير بعد سقوط الملكية .. مما أدى إلى انتكاسة الثورة وسط تخبط عشوائي وفجائي دون وجود تصور واضح المعالم لمجتمع مستقبلى يكون أكثر عدلاً وانصافاً — على أقل تقدير .

* ان مفكرى الثورة الفرنسية وقياديها هم أيضاً لم يدركوا ماذا يريدون على وجه التحديد .. ؟فأرتكزت غاية أفكارهم في اسقاط الملكية والمناداة بشعارات « الحرية — الاخاء — المساواة » دونما وجود أى تصور علمى وعملى من شأنه تحقيق تلك الشعارات ووضعها موضع التطبيق الفعلى على أرض الواقع .. فصاحب الابهام تلك الشعارات وضاعت وسط سيطرة القوى البرجوازية على الموقف ..

ان غياب النظرية الثورية التي تحمس الجماهير على القيام بالفعل الثورى أدى إلى صبغ أحداث الفعل الثورى بالغوغائية والديماغوجية .. وأصبحت الجماهير هائجة تغلى وتمور يحركها الأعداء بعاطفية في اتجاه حتفها .

* حالة الغوغائية والديماغوجية تلك سمحت بظهور حالة من الارهاب على أوسع نطاق ولزمن طويل فدمرت القوى المعادية للثورة . . وبات من الطبيعى ان تنتقل السلطة إلى الطرف الأقوى .. ولم يكن ذلك الطرف بطبيعة الحال « الجماهير » التى قامت بالثورة .. بل الطرف البرجوازى النخبوى والطليعى .. فحرمت الجماهير من ثمرة انتصارها .. فالسلطة قد آلت إلى الأحزاب .. أما الثورة فقد أصبحت مجرد تاريخ وذكرى ..

* * *

سلسلة تعميمات حركة اللجان الثورية

شعبة المنهج و التعميمات

مكتب الاتصال باللجان الثورية

طرابلس الجماهيرية


حسن يوسف اللويثي
حسن يوسف اللويثي